ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

المغرب في مرآة الآخر
تحليل صورة المغرب في الكتابات الكولونيالية

د. محمد مزيان
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تجمع الأدبيات التاريخية المغربية على أن التكالب الأوربي بشكل عام والفرنسي بشكل خاص تزايد بعد احتلال هذه الأخيرة للجزائر سنة ١٨٣٠، وعلى وجه التحديد بعد هزيمة الجيوش المغربية أمام نظيرتها الفرنسية في واقعة إيسلي ١٨٤٤ التي لم تكن هزيمة عسكرية فحسب بل معركة أزالت هيبة الدولة المغربية وأظهرت عتاقة المخزن المغربي واهتراء مؤسساته. لهذا وجهت فرنسا جهودها لاحتلال المغرب بأقل تكلفة ممكنة وكانت تردد: "كما قادتنا الجزائر لاحتلال تونس يجب أن توصلنا لاحتلال المغرب". لهذا وظفت جميع الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الغرض من ضغط عسكري وديبلوماسي ومالية... كل ذلك كان مصحوبا بدراسات سوسيولوجية وأنثروبولوجية وتاريخية للمنطقة، بغية تحقيق الاحتلال. لهذا سيصبح العالم في خدمة الأجندة العسكرية. كان الغرض من هذه الدراسات التي تتداخل فيها التخصصات هو تقديم نتائج "عِلمية" للسلطات الاستعمارية، عن المغرب وبنياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومعرفة كيفية تحرك دواليب الأمور وكيف تتعايش مكونات المجتمع المغربي. نتج عن هذه الأعمال مجموعة من الأحكام الجاهزة والأفكار المسبقة لتبرير سياسة الغزو من ذلك مثلا: الفوضى الدائمة التي يعشها المغرب، وغياب الدولة، وأن المغرب عبارة عن غبار بشري.... إلى غير ذلك من الأحكام، ساهمت بشكل أو بآخر في تسهيل عملية الاحتلال وأنتجت صورة مغلوطة عن المغرب. ذلك ما سنحاول تتبعه في هذا المقال.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٢٨ مايـــو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الاستعمار الفرنسي، الكتابات الكولونيالية، الكتابات الفرنسية، صورلوجيا مغربية، المخيال الفرنسي

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0047320

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد مزيان. "المغرب في مرآة الآخر: تحليل صورة المغرب في الكتابات الكولونيالية".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد الثامن والثلاثين؛ ديسمبر ٢٠١٧. ص١٢٢ – ١٢٧.

مُقَدِّمَةٌ

يشكل الحديث عن صورة المغرب في المخيال الفرنسي خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نوعًا من البحث عن ملامح الذات والأنا المغربيتين في فترة زمنية مثقلة بالهواجس والتنافس الاستعماري وبهدف البحث عن الميكانيزمات المتحكمة في هذه الكتابات. وهو ما يجرنا بالضرورة للحديث عن الانتاجات الفرنسية خلال الفترة المذكورة رغم صعوبة المسألة لأن الأمر يتداخل فيه مجموعة من التخصصات (السوسيولوجيا، الأدب، التاريخ، الأنتروبولوجيا...) فقراءة هذه الأعمال المتعلقة بتاريخ ومجتمع المغرب الذي تم إنتاج جزء كبير منها من خلال مؤسسات "علمية" كـ"البعثة العلمية" و"معهد الدراسات العليا المغربية"، تكشف عن الكيفية التي تحولت بها أحكام القيمة والايديولوجيا الاستعمارية إلى مسلمات معرفية، يعاد استخدامها للتهيئ للتدخل الاستعماري ثم لتنفيذ وتبرير سياسة الغزو. إن الرغبة في ملامسة ملامح صورة المغرب ومحاولة إبراز عيوب النظرة الاستعمارية هو ما دفعنا لكتابة هذا المقال.

١- ميلاد صورلوجيا مغربية

كان المغرب ضحية موقعه الجغرافي، حيث كان محورًا هامًا للكتابات الاستشراقية والغزو المنهج بكل تجلياته السياسية

والفكرية، فكان أن اجتمعت معظم اللغات الأوروبية محللة نمط الحضارة المغربية انطلاقا من علاقة نفعية. نجد أن أغلب هذه الكتابات كانت لفرنسيين اهتموا بالعادات والتقاليد المغربية مؤسسين لنظرة عميقة عن البنيات المكونة للمجتمع المغربي، كانت هذه الانتاجات لرجالات مهدوا للاحتلال العسكري وخصوصًا الرحالة والجواسيس والعسكريين، وهو ما أنتج صورة شوهاء وأحادية الجانب حول المغرب الغريب/ البدائي/ المتوحش، هذا ما وضعنا أمام خطاب استعماري واضح؛ وهو ما يوضح أن كتابات الفرنسية فترة الحماية تحولت إلى قطاع وظيفي مهمته البحث عن "روح المغرب" كما عبر عن ذلك جورج هاردي. إن الاحتلال العسكري لأي بلد تسبقه دراسات وأحكام واستنتاجات، وعليه فقد تنوعت الدراسات التي تمحورت حول التعرف على المغرب في مختلف حقول المعرفة الانسانية بهدف إيجاد استراتيجية تسهل عملية الغزو أو بالأحرى انجاز احتلال عسكري بأقل ما يمكن من التضحيات والخسائر.

من هذا المنطلق جاءت الدراسات المتعددة للمغرب تفاديًا للأخطاء التي ارتكبت في الجزائر، لأنه وكما هو معلوم فقد ارتبط البحث الكولونيالي حول هذا البلد باستعمار الجزائر سنة ١٨٣٠. حيث شكل المغرب سوقا تجارية مهمة ورغبة فرنسا في حماية مستعمرتها الجديدة من ذلك البلد الغريب المجهول رغم كونه لا يبعد عن أوروبا إلا بضعة كيلومترات. انطلاقًا من هذا الجهل ومن رغبة فرنسا في بسط يدها على المغرب والانفراد به خاصة بعد الهزيمة التي مني بها في معركة إيسلي ١٨٤٤ وغير ذلك من الأحداث التي عرفها المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر، لهذا تعددت الرحلات التي اتخذت طابعًا استعلاماتيًا اتجاه المغرب بهدف تزويد المتروبول بأكبر قدر من المعلومات.

شكلت الرحلة إلى المغرب آلية ووسيلة للكتابة حول هذا الفضاء والتعرف على خباياه وميكانزماته وبنياته العتيقة، ونجد في مقدمة الرحالة الذين زاروا البلاد نجد شارل دوفوكو الذي طاف المغرب سنة ١٨٨٣ متنكرًا في زي يهودي م أجل مادة كتابه Reconnaissance au Maroc 1883-1884 فجاءت هذه الرحلة غنية بالملاحظات التي سجلها عن الأماكن والاخلاقيات والسلوكيات وأنواع اللباس وأنماط السلاح، وسار على نهجه "دي سيكونزاك" فهؤلاء الرحالة لم يستطيعوا التخلص من النظرة التقليدية والموروث الثقافي "النظرة الشرقية" على اعتبار أن المغرب جزء من الشرق بما يمثله هذا الأخير من سحر وغموض وعتاقة واختلاف في الدين وبكل ما يحمله هذا النعت في الوعي الجمعي الفرنسي من نفور وغموض واستغراب، لهذا فـ"ميث" الشرق لايزال يحتل مكانة هامة في الثقافة الغربية وإحدى الركائز الأساسية في صورة الآخر فلا يبدو الشرق امتدادًا غير محدود خارج العالم الأوربي المألوف، بل حقلاً مغلقًا ومسرحًا تمثيليًا ملصقًا بأروبا.[١] وبهذا شكلت الرحلة الفرنسية نوع من الدراسة المقارنة حول الأنا في علاقته بالآخر.

هيأت كتب الرحلة بوعي أو عن لاوعي لولادة الصورلوجيا[٢]؛ نظرًا للتراكم الهائل للمعلومات والملاحظات. ولأن الرحلة هي ذهاب وإياب وعودة بالجسد والخيال، فإنها تحمل طابعًا مركبًا جدليًا. فالرحالة ينتقل إلى الآخر بمكانه وزمانه وهو على أساس أن الرحلة ليست تصورا أو تصويرا للمكان المقصود فقط، وإنما هي أيضا بالأساس إعادة انتاج واستكشاف وتصوير للمكان المنطلق والتعرف عليه[٣]. ومن هنا تنتج مقارنة ومقابلة بين ثقافتين مختلفتين: ثقافة الأنا المتقدم/ القويم والآخر الضعيف الذي لم يرتقي بعد إلى مصاف الدول المتقدمة. هذه المقابلات بين فضاءين أو أكثر هي ما يشكل اهتمام المقارن في ميدان الصورلوجيا ذلك أن المقارنة تمكن إذن كل رحلة أو رحالة تتواجه فيهما الأنا بالغير[٤]. كما أن موضوع الرحلة يسمح بتجسيد المتخيل عبر نظام الرموز حيث تصبح التجربة المعيشة تاريخيا بينما تلعب الكتابة بالمتخيل والتاريخ مواجهة تارة بميثة وثارة بتنوع الحقائق. ويمكن تعريف الصورلوجيا بأنها مبحث يهتم بالبحث عن الواقعي والمتخيل في الصور والميتات المكونة عن الأجنبي والغريب من خلال نماذج تمثيلية داخل الحقل الثقافي لــ الأنا فهي إذن:

- اصطلاح ظهر في الأدب المقارن يشير إلى دراسة صورة شعب عن شعب آخر باعتبارها صورة خاطئة.
- حقل لدراسة تكون الصورة الخاطئة في شهادات أدب الرحلة.
- مبحث يعتمد على مفاهيم الدرس السيكولوجي والسوسيولوجي والاثنولوجي وهي بذلك عبارة عن تداخل دروس العلوم الانسانية بالأدبية[٥].

فالصورة إذن عبارة عن رؤيا نستنتج من خلالها موقف الأنا في علاقاته مع الآخر، ذلك أن كل صورة مهما كانت صغيرة فإنها تصدر عن وعي وعن أنا في علاقته بالآخر، عن الــ "هُنا" في علاقته بالــ "هُناك"؛ فالصورة إذن هي انزياح دال بين واقعين ثقافيين متباينين وهي تعبير عن واقع ثقافي مغاير ومختلف عن الآخر من خلاله نتعرف على ذاته، وهي الصورة التي ترسمها الذات لآخرها غير متجانسة وخاطئة في كثير من الأحيان. ذلك أن كل فرد بل كل بلد يصنع لنفسه عن الشعوب الأخرى صورة مبسطة تبقى فيها فقط معالم هي أحيانًا جوهرية في الأصل وأحيانًا عرضية، وتكون هذه الصورة في

الواقع كاريكاتورية مشتملة على الخطوط الجوهرية ولافتة للنظر، فموضوع الصورة تتقاسمه عناصر ثقافية موضوعية، ذاتية، وكذلك الاغراق في الميتات أو السراب. ذلك أن الصورة هي أساطير وأوهام خادعة، وهذا المصطلح الأخير يعبر جيدًا عن الانجذاب ليس إلا انعكاسًا لأحلامنا ورغباتنا الشخصية.[٦]

الواقع أن هذه الصور تفتقد في معظمها للمصداقية وللواقعية، ذلك أن الفرق واضح جدًا بين المتخيل والواقع المعاش، وهو ما دفع الباحثين المغاربة بعد الاستقلال إلى محو المسافة الفاصلة بين الآخر وواقعه بهدف تخليص تاريخ المغرب من أوحال النظرة الاستعمارية والاسقاطات المجانية والأحكام القيمية التي جاءت بها المنظومة الكولونيالية الفرنسية. إذ من شأن الصورة الذاتية أن تكون بمثابة جواب مبطل للأسطورة الاستعمارية عن المغرب وصدمة عنيفة للصورة المشوهة[٧]، المعتمدة بالأساس على الزوج المفاهيمي: (سهل/ جبل)، (مدينة/ قرية)، (عرف/ شرع)، (عرب/ بربر)، (بلاد المخزن/ بلاد السيبة). هذه الثنائية الأخيرة اعتمدت عليها فرنسا بالخصوص لإقناع معارضيها في التوسع الفرنسي بالمغرب إنما هو بهدف حماية الجزائر، وحماية المخزن وحكمه المرفوض من طرف بلاد السيبة الرافضة لكل مراسيم الطاعة والولاء ومن ضمنها، دفع الضرائب وإمداد السلطان بأعداد معينة من الرجال للمشاركة في حرْكة السلطان. فالنظام السياسي في المغرب هو نظام مفكك ولم يتمكن المغاربة بعد من الارتقاء إلى فكرة الأمة.

٢- أطروحات الكتابات الفرنسية حول المغرب

تتلخص الأطروحات الأساسية لمعظم الكتابات التي كان موضوعها المغرب هو تمثلها لهذا الفضاء كمجتمع يعيش في فوضى شاملة ومستمرة، ولا ترجع هذه "الفوضى المغربية" إلى مجرد ظرفية أزّمت هياكل الدولة والمجتمع، وإنما هي فوضى "تاريخية" تمثل جزءًا عضويًا من بنية الكيان المغربي نفسه، وقد طبعت تاريخ المغرب في مجمله ومنذ الفتح العربي، أي منذ القضاء النهائي على نتاج استعمار أوربي محضّر، وهو الاستعمار الروماني. وتجد هذه الفوضى مصدرها في التعارض المستمر بين العرب "الغزاة المستبدين" المستقرين بالمدن والسهول، والسكان الأصليين المناهضين لهؤلاء العرب، سواء كحكم أو تنظيم اجتماعي أو كدين وثقافة. وقد أنتج هذا التمثل مجموعة من الأزواج الشهيرة التي استخدمت (ولا تزال تستخدم) لدراسة تاريخ ومجتمع المغرب كالعرب/ البربر، السهل/ الجبل، الشرع/ العرف، المخزن/ السيبة، و"تيوقراطيـــة العرب"/ "جمهورية البربر"، الخ... وبالتالي يجد الاستعمار مكانه كبديل وحيد وموحِّد، قادر على تجاوز هذه التعارضات المستعصية.

ما يمكن ملاحظته في مختلف الكتابات الفرنسية[٨] عن المغرب هو تكريس الرؤية الاثنوغرافية المشبعة بالدهشة والإثارة والغرابة حيال مختلف تناقضاته وأوهامه المتضاربة، ولأخذ فكرة عن مختلف الآراء المغلوطة حول صورة الإنسان المغربي. نسوق نموذجين لهذين الأعمال:

٢/١- الخطاب الفرنسي من خلال كتاب "الروح المغربية "

نورد هنا نماذج عن هذه الكتابات لأحد دهاقنة التنظير الاستعماري ومدير التعليم في المغرب خلال فترة الحماية "جورج هاردي"[٩] من خلال كتابه "الروح المغربية" الذي اعتبره دراسة غير نهائية عن العقلية المغربية بل محاولة لسد الفراغات واستجلاء الغموض وإيجاد الحلول وفي نفس الوقت يحتوي على معطيات عديدة لكشف الأوهام. فالهدف من الكتاب حسب ما صرح به هاردي هو تحرير الروح المغربية من ركام الصور الجاهزة والكليشيهات ومن الهوس والخوف. لهذا يعتبر الكتاب دعوة للكتاب الفرنسيين إلى توجيه مجهوداتهم نحو البحث الذي يعد مفتاحا لمعرفة الإنسان المغربي على اعتبار أن الذهنية المغربية مجال للتجربة وأن انشغالات الفرنسيين تجاوزت حقل السياسة الكولونيالية.

من هذا المنطلق آمن "هاردي" أن الغزو الحقيقي هو فهم واستيعاب الذهنية المغربية وميكانيزمات انشغالها، والابتعاد عن القوالب الجاهزة التي اعتمد عليها أغلب المؤلفين (عسكريون، سوسيولوجيون...) فلرسم الصورة المغربية لابد من معرفة عميقة للبلاد وللأخلاق بعيدًا عن تشتيت هذا اللا نظام والربط بشكل قوي بين تميز وخصوصية العادات والمظاهر السيكولوجية للإنسان المغربي. ركز أيضًا على الثنائية السابقة الذكر التي اعتمدت عليها الكتابات الكولونيالية.

ولفهم الابداع المغربي يجب دراسته في أصوله ومنابعه وليس في آثاره التي تعمر المدن الكبيرة. وبدراسة هذا النوع سنخلص إلى اكتشاف جمالية ليست محدودة في الانتاجات التشكيلية للزرابي والخزف وإنما مرتبطة بدقة بالحياة في شكل شعر وموسيقى ورقص وكذلك فهي ليست مقتصرة على جماعات خاصة، وإنما تستمر بالظهور في العمق الجماعي للمغرب[١٠]. أما عن الروح الاستقلالية فقال عنها: " إن الحرب ضد أوروبا هي أكثر شراسة من التي تخوضها القبائل فيما بينها أو ضد المخزن ويضيف أن الذي يؤكد الروح القتالية والكبرياء هو شعور المغاربة أنهم لن يخضعوا حيث نشعر أنهم خلقوا ليحاربوا[١١].

التركيبة البشرية المغربية هي رصيص من القبائل المختلفة، أعطت الانطباع أن المغرب دولة غير موحدة وعبارة عن مجتمع قبلي تجزيئي بجانب سلطة مخزنية مركزية، ذلك أن فكرة الوطن ظلت غائبة عن ذهنية الأهالي... فكلمة المغرب غير متداولة في اللغة الرائجة بمعناها الاثني والجغرافي والسياسي الذي نعطيه له[١٢]. إن وضع صورة كاملة عن بنيات المغرب وفهم نفسية المغربي خلال فترة الحماية لم يكن ليتم دون دراسات العادات والتقاليد المغربية، فإلى جانب الدراسات التاريخية والجغرافية التي اهتمت بدراسة تاريخ المغرب في مختلف فتراته وحقبه، نجد دراسات سوسيولوجية وإثنولوجية ولسانية كان الغرض منها الغوص داخل بنية المجتمع المغربي ودراسة سكانه وأصولهم العرقية، وما ينتج من سلوكيات مختلفة، من أجل استجلاء فردانية الروح الأهلية التي تبدو غريبة في أبسط جزئياتها عن المستعمر.

فالإنسان المغربي رغم كل أخطاءه وهفواته فهو يعيش حياة أخلاقية جيدة ومفيدة يتغدى بوسواس لا يستهان به، مثلا تعدد الزوجات، البحث المستمر عن الخليلات لا يمنع المغربي من أن يكون أبا جيدا للعائلة[١٣]. فالمغربي في نظر الفرنسي مجبول على الفردانية والعدوانية، ومنغمس حتى النخاع في مظاهر اللذة والفسق. يعيش بطريقة تجمع بين متناقضات ومفارقات شتى؛ يتعايش مع المقدس والمدنس، والعنف واللذة، والفردانية وعبودية جماعية. فأحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية - حسب هاردي- هو جعلهم أكثر ولاء وأخلص في خدمتهم للمشاريع الفرنسية هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا فالمقصود إذن باختصار أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف عقولهم حسبما نريد. ولتكريس هذه الثنائية قال إن: "المغربي كسول بطبعه، ذلك الحب الرفيع للكسل وكره العمل الذي يطبع الشرق."[١٤]

٢/٢- الخطاب الفرنسي من خلال كتاب العالم المغربي لـ" بول أودينو"[١٥]

نموذج ثان للكتاب الفرنسيين الذي اهتموا بالمغرب لا تختلف مواقفه وآراءه عمن أوردنا أعلاه، فهو يتحدث عن التركيبة البشرية المعقدة لنسيج المجتمع المغربي خلال فترة الحماية، "فهو خليط أجناس وتلاقح دماء بربرية وعربية ويهودية وأحيانًا تركية، لكن العرقين المؤثرين في هذه التركيبة هما العرق العربي والبربري، فالمشكل المطروح هو أنه في المغرب أناس يتكلمون العربية وآخرين البربرية لكن هذه التفرقة الظاهرة لا تسمح بتاتًا بإقامة تفرقة بين العرقين"[١٦]. كما يعيش العنصر العربي: "حياة رتيبة ومتعبة لا يبتعدون عن قراهم ولا يتجاوزون الأسواق القريبة ولا يذهبون إلى المدن إلا لبيع منتوجاتهم ولشراء الأثواب"[١٧]. وعن علاقة هذا العنصر بالسلطة يورد الكاتب بأنها علاقة يطبعها التوتر نظرا لاستبداد المخزن وحب المغربي للرغبة في القتال وميله لحياة الكسل. كما أن علاقاته بالقبائل المجاورة يطبعها الصراع فالقبائل المتاخمة لبلاد زيان تتقاتل باستمرار من أجل الحصول على الخشب من الغابة البربرية وخاصة من أجل التمتع بحق الرعي في فصل الصيف"[١٨].

ركز أودينو على القبيلة كبنية سياسية واجتماعية وانتاجية تنقسم إلى قبائل مخزنية وقبائل ثائرة، حيث يقر أنه من الصعب دراسة ومقارنة مختلف سكان مختلف القبائل ... وما يكفي هو التأكد أن لدى هذه القبائل فوارق كثيرة[١٩]. غير أن ما يميز البربري هو حبه للاستقلال، ذلك أن الممارسة السياسية للمجتمع البربري تضمنت مضمون سياسي استقلالي عن مخططات المخزن كما أنه في صراع دائم مع القبائل المنافسة لهم.[٢٠]

من بين القضايا التي ركزت عليها الدراسات السوسيولوجية الفرنسية نجد قضية الطقوس الدينية، فهل هي تعبير عن الاسلام الرسمي المخزني إسلام السهول والحواضر أم اسلام بلاد السيبة أي الاسلام البربري؟ على اعتبار أن هؤلاء اعتنقوا الاسلام اعتناقًا سطحيًا وحافظوا بقوة على عاداتهم وتقاليدهم وحتى ولائهم للولي ولبعض شيوخ الزوايا ذلك أن التأسلم في المغرب يظهر بدرجات متباينة وأن التقاليد القديمة مختلفة عن الاسلام[٢١].

أضفت الإسطوغرافيا الكولونيالية على سطحية "اسلام البربر" هالة كبيرة ارتقت بالتنظير لها إلى مستوى الحقائق المطلقة التي اعتمدت عليها لتنفيذ مخططاتها الرامية إلى ضرب مقومات ومكونات الروح المغربية وتقسيم المغرب إلى عرقين متناحرين عرب وبربر وإيديولوجيتين مختلفتين هما الاسلام والعرف. حيث يقول بول أودينو "إن الاسلام وجد في المغرب شعوبًا متمردة دخلت الاسلام بالقوة واحتفظت بأعرافها وخرافاتها وثنية"[٢٢]. كما أن التأثير الاسلامي والشرقي الممارس على المغرب لم يعمل سوى على تقوية المبادئ الأصلية، ففي المناطق المنشقة أو التي أخضعت حديثًا فالعبادة تقريبًا مهملة ومعرفة العقيدة غير محققة.

من الواضح أن صورة المغرب في المخيلة الاستعمارية الفرنسية هي صورة شوهاء ومغلوطة اعتمدتها الادارة الاستعمارية كوسيلة لتسهيل إلحاق المغرب وذلك بإعطاء صورة عن مغرب مليء بالتناقضات والصراعات والمغالاة في تدعيم هذه المواقف ومن ذلك اهتماماتها السوسيولوجية بالمناطق البربرية باعتبار أن اسم البربر قد ارتبط ضمنيا بإثارة الفوضى وشق عصا الطاعة لما يتمتع به روح استقلالية. وبذلك كانت الصورة

في خدمة الأجندة العسكرية ومسايرة عملية الغزو تجسيدا للمشروع الاستعماري.

إن القبائل بلاد السيبة أو بمعنى أدق جعلتها الكتابات الأوروبية مركزا لحركات التمرد، لكن ما هو معروف فغنها كانت خاضعة للسلطان المغربي وتقيم الصلاة باسمه وترسل الضرائب المفروضة إلى بيت المال وتشارك بعدد من أفرادها إلى جانب المخزن في الحركات العسكرية كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ما عدا ذلك فإن أمور هذه القبائل اليومية المعاشة ومشاكلها المتعلقة بالأرض والمراعي والإرث والجرائم وتوزيع المال كانت تسير عن طريق الجماعة معتمدة على مجموعة من الأعراف اختلفت من قبيلة لأخرى ومن منطقة إلى أخرى.

إن قراءة ما كتبه الأجانب حول المغربي، في فترة الحماية بكل الهواجس والأنساق المرجعية التي تؤطرهم، هو ما يشكل في حد ذاته مرتكز العملية النقدية لهذا عملت الكتابات الفرنسية على ترسيخ فكرة أن الإسلام دخيل على البربر واعتناقهم للإسلام كان اعتناقًا سطحيًا. عمومًا فإن الصورة الاستعمارية ارتكزت بالأساس على:

- غياب أجهزة الدولة بالمفهوم الحديث وتطاحن الإثنيات.
- تخلف تاريخي.
- الاستبداد[٢٣].

ركزت الصورة أيضًا على تضخيم الذات الفرنسية (الغربية) باعتبارها حاملة لقيم الحضارة والمدنية الحديثة ولفكر عصر الأنوار، وتقزيم صورة الآخر البدائي والغريب. كما كرست لميلاد صورة غرائبية ذا بنيات اجتماعية وهياكل مخزنية المهترئة. يقول ميشو بيلير: "إنه بقدر ما نتسرب بعمق داخل الجسم المغربي، فإننا نصل من خلال الستار الذي يضفي عليه مظهرًا إسلاميًا موحدًا، إلى الأخذ بعين الاعتبار بأن عدد كبيرًا من المؤسسات التي تكون هذا الجسم ترجع أصولها إلى عهد سابق على وصول الاسلام إلى هذا البلد"[٢٤]. فالدراسات السوسيولوجية لهذا البلد هي التي بمقدورها أن تسمح لنا بمعرفة بنيته الحقيقية، يجب أن تكون أيضا ميسرة في القبائل البربرية وبالخصوص تلك التي حافظت على بشكل كامل على لغتها ومؤسساتها.[٢٥]

خَاتِمَةٌ

تأسيسًا على ما سبق يتضح؛ أن هذا اللُبس والتداخل بين السوسيولوجيا والسياسة والتاريخ في كتابات الفرنسيين حول المغرب نظامًا ومجتمعًا لم يكن وليد التوسع الاستعماري، بل كان يبحث عن مصداقية ومشروعية استعمارية، بحيث لم تتمكن من تجاوز النظرة الشرقية الموروثة عن الحروب الصليبية[٢٦]، لذلك لم يتمكنوا من صياغة نمط مغربي له محدداته وميكانيزماته السياسية وخصوصياته الثقافية واللغوية، الأمر الذي انعكس على عناصر الصورة التي ظلت غير مكتملة وخاطئة في أغلب الأحيان. لهذا فالمسؤولية ملقاة اليوم على الباحثين والمهتمين لتطهير صورة المغرب عبر:

- خلق ذهنية معاصرة عند المؤرخين وذلك بتوسيع وتعميم الدراسات المنهجية والأبستمولوجيا.
- تأسيس مدرسة وطنية لحفريات تقوم بأعمال منظمة ومبرمجة تهم كل الفترات.
- إقرار دراسة اللهجات حسب توزيعها الجغرافي وتطورها الزمني.
- تعميق مستوى التعرف على الالكترونيات[٢٧].
- التخلص من وظيفية التخريجات الكولونيالية والتأسيس لكتابة تاريخية وطنية.

هذا بالإضافة إلى القيام بنقد مزدوج للمفاهيم المتداولة، بهدف إعادة بناءها داخل الإطار الثقافي الذي انتج فيه، لهذا وجب دراسة الكتابات الاستعمارية والاستفادة منها لأنه بغض النظر عن خلفياتها الأيدولوجية، فإنها تقدم وصفًا وتحليلاً للبنيات المكونة للأنسجة الاجتماعية ولطبيعة العلاقات السائدة لمغرب القرن التاسع عشر ولفترة الحماية.

الهَوامِشُ:

(١) محمد أنقار، **بناء الصورة في الرواية الاستعمارية**، مكتبة الادريسي للنشر والتوزيع تطوان، ١٩٩٤، ص٦٤.

(٢) سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٥ن ص ١٣٦.

(٣) عبد النبي ذاكر، المغرب بعيون غربية، الملحق الثقافي، **جريدة العلم**، السبت ٣٠ اكتوبر ١٩٩٣.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) سعيد علوش، **معجم المصطلحات**... م س ، ص ١٣٧.

(٦) محمد أنقار، **بناء الصورة**... م س ص ٥٤

(٧) المرجع نفسه، ص ٥٩.

(٨) عديدة هي الأعمال التي تناولت الموضوع والثقافة المغربية والبنيات السياسية والثقافية والقبلية للمغرب نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

(٩) نشر مجموعة من الدراسات حول المغرب العادات التقاليد العقلية ... نذكر منها على سبيل الحصر

Le Marocain, In: Annales de Géographie. 1927, t. 36, n°202. pp. 336-346

L'âme des villes. Exemple de Fez, In: Bulletin de l'Association de géographes français, N°32, 6e année, avril 1929. pp. 38-40.

La 'Librairie' des Écoles indigènes en Afrique, Africa: Journal of the International African Institute, Vol. 1, No. 2 (Apr., 1928), pp. 145-156

(10) Hardy George**, L'âme marocaine d'après la littérature française**, Paris, 1926 p.48.

(11) Ibid, p. ٧٦

(12) Ibid, p.28

(13) Ibid, p. 64

(14) Hardy George**, L'âme marocaine d'après la littérature française**, Paris, 1926 p. 14.

(١٥) عسكري فرنسي اشتغل ضابطا للشؤون الأهلية في المغرب ما بين (١٩١٨-١٩٣٠) تحت قيادة المقيم العام المارشال ليوطي، استطاع خلال وجوده في المغرب علاقات جد قريبة مع الأهالي وأتقن اللغة العربية. ألف العديد من المؤلفات ما بين الرواية والسوسيولوجيا نورد:

- *Monde marocain* (1926)
- *Le Caïd Abdallah* (1923), *La Première Communion d'Abd el-Kader* (1927) *Géranium, ou la vie d'une femme marocaine* (1930).

(16) Paul Odinot, **Le Monde marocain, La Vie musulmane et orientale**. Collection sociologique, Édition, Paris , M. Rivière, 1926, p. 20.

(17) Ibid, p.30.

(18) Ibid, p. 16.

(19) Paul Odinot, op,.cit. p. 24.

(20) Ibid, p. 25-26.

(21) Hardy George**, L'âme op,** . cit. p 11

(22) Paul Odinot, op,.cit. p. ٢٣٠.

(٢٣) أسامة الزكاري، **الجذور التاريخية لتشكيل التركيبة البشرية المغربية**، في مسألة البحث عن المفاهيم الأولية، **جريدة العلم**. ٢٤ دجنبر ١٩٩٤.

(٢٤) ميشو بيلير، السوسيولوجيا المغربية، **مجلة العلوم الاجتماعية أبحاث** عدد ٩-١٠ الرباط، شتاء ١٩٨٦ ص ٢٨.

(٢٥) المرجع نفسه، ٢٩

(٢٦) سمير بوزويتة، **مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية (١٨٣٠-١٩١٢)**، أفريقيا الشرق الدار البيضاء ٢٠٠٧، ص٢٢١

(٢٧) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢ ص ٢٠